خطبة صلاة الجمعة 02/8/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(براءة الذمة –4–)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:94].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:53-54].

روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد حَسَن، عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ –أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ– عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا»، قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ، أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ» قُلْنَا: كَيْفَ؟ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ».

أيها الإخوة:

في أحوال الدَّعة والرَّخاء، يَحْسُن بالإنسان أن يَذْكُرَ الموتَ، ليبتعدَ قليلاً عن ترف الحياة ويُجَهِّز رِحَاله للآخرة، فكيف إذا كان الموت يَطوف حولَه، ويَشعُر بقربِهِ منه مرَّات ومرَّات...

ولكثرة الموت، وتوقُّع حدوثه، كانت خُطُب الجمعة الأربع في رمضان بعنوان: (براءة الذِّمَّة).

تحدَّثت الخطبة الأولى عن أهميَّة براءة الذِّمة في نجاة المرء يوم القيامة، والثانية بيانٌ بالذِّمم المترتبة على العبد في حق الله تعالى وآليات تبرئة الذِّمة, والثالثة: بيان بالذمم المترتبة على العبد في حق العباد وآليات تبرئة الذمة, وهذه الرابعة الأخيرة وعنوانها:

"بيان بالذمم المترتبة على العبد في حق أرحامه, وآليات تبرئة الذمة"

وإنما أفردت الرحم بحديث خاص وهم عباد من العباد, لما للرحم من منزلة في الإسلام, ولأثرهم في تكاتف المجتمع وترابطه.

ولئن قلت: الرحم, فمرادي بهم: الوالدان وإن علوا، وفروعهما، والأبناء وإن نزلوا، والزوجان.

وأحب أن أبدأ الخطبة ببشرى لكل من برأت ذمته واستقامت سريرته, لنجهد في براءة ذممنا من حقوق الله وحقوق العباد والرحم.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :«**إنَّ الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة، فيقولون: لبَّيْكَ ربَّنا وسَعدَيك، والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا, وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِكَ؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيء أفضل؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً**».

أيها الإخوة:

للأرحام على كل منا حقان: مادي ومعنوي، أما الحق المادي: فالنفقة, وأما المعنوي: فالوصل والعدل، وتتحدث الخطبة عن كلا الحقين.

أولاً- الحقوق المادية للرحم:

نفقة الأرحام بين مسنونة ومفروضة، وفي كتب الفقه باب كبير يتحدث عن النفقات على الأرحام, خلاصته في هذه الكلمات الأربع:

1- نفقة كل امرئ من ماله إلا الزوجة فنفقتها على زوجها, غنية كانت أو فقيرة.

2- نفقة الأبناء على أبيهم: الذكور حتى يصيروا قادرين على الكسب, والإناث حتى يتزوجن، ومثل الأبناء؛ الأحفاد عند الجمهور.

3- نفقة الوالدين على أبنائهم الذكور والإناث, بشرطين: أن يكون الأصل فقيراً أو عاجزاً عن الكسب، وأن يكون الفرع موسراً، ومثل الوالدين: الأجداد والجدات.

4- نفقة الحواشي من إخوة وأخوات وأبنائهم, وعمات وخالات..., غير واجبة على المرء عند الشافعية والمالكية، على حين أوجب الحنابلة النفقة على كل قريب وارث، وأوجب الحنفية النفقة على كل قريب محرم، بشروط ثلاثة: يسار المنفق، وإعسار المنفق عليه، واتحاد الدين.

فإن كنت منعماً بالمال فَخُذ بقول الحنابلة والحنفية، وإن ضاق عليك رزقك ففي قول الشافعية والمالكية لك فسحة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دِينار أنفقتَه في سبيل الله، ودِينار أنفقتَهُ في رقبة، ودينار تصدَّقْتَ به على مسكين، ودِينار أنفقتَهُ على أهلك، أعظَمُها أجراً الذي تنفقه على أهلك**», [أخرجه مسلم].

فمن أنفق على أهله بالمعروف فقد أرضى ربه, وأكرم رحمه, وبرأت ذمته, ومن علقت بذمته نفقات فليبادر إلى أداء ما عليه, لأن الحديث الشريف يقول: «**كفى بالمرء إثما أن يَحْبِسَ عمن يملك قوتَه**», [أخرجه مسلم]. وفي رواية: «**كفى بالمرء إثماً أن يُضَيِّع مَن يقوتُ**».

وإن مما يشوش ذمة المرء – أيها الإخوة – فيما يتعلق بالحقوق المادية للرحم مسألة الميراث، فأبٌ يريد حرمان ابن من الميراث، وأخ يسطو على حق أخواته في ميراث أبيهم، وزوجة لا ترضى أن تنال ضرتها نصيبها من الإرث.

روى الإمام الترمذي وغيره: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهُ, عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً, ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ, فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ**».

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من فرَّ من ميراث وارثه, قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة**».

ذكر ابن الجوزي في كتابه النافع "صفة الصفوة" قصة امرأتين بغداديتين, قال:

(بلغني أنه كان ببغداد رجل بَزَازٌ له ثروة, أراد الزواج بزوجة ثانية، فقال لها: لي ابنة عم وهي زوجتي, وقد عاهدتها ألا أغيرها ولي منها ولد، فقالت: قد رضيت أن تجيء إليَّ في الأسبوع نوبتين.

فعقد العقد ومضى إلى منزلها فدخل بها، ثم ذهب إلى منزله, فقال لزوجته إن بعض أصدقائي قد سألني أن أكون الليلة عنده، ومضى فبات عندها.

وكان يمضي كل يومين بعد الظهر إليها، فبقي على هذا ثمانية أشهر, فأنكرت ابنة عمه أحواله، فقالت لجارية لها إذا خرج فانظري أين يمضي، فتبعته الجارية فجاء إلى الدكان، فلما جاءت الظهر قام, وتبعته الجارية –وهو لايدري– إلى أن دخل بيت تلك المرأة، فجاءت الجارية إلى الجيران فسألتهم لمن هذه الدار؟

فقالوا: لصبية قد تزوجت برجل تاجر بزاز، فعادت إلى سيدتها فأخبرتها، فقالت لها: إياك أن يعلم بهذا أحد، ولم تظهر لزوجها شيئاً، فأقام الرجل على ذلك دهراً, ثم مرض ومات، وخلف ثمانية آلاف دينار، فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلى ما يستحقه الولد من التركة –وهو سبعة آلاف دينار– فأفردتها, وقسمت الألف الباقية نصفين، وتركت النصف في كيس, وقالت للجارية: خذي هذا الكيس واذهبي إلى بيت المرأة, وأعلميها أن الرجل مات, وقد خلف ثمانمائة آلاف دينار, وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه, وبقيت ألف فقسمتها بيني وبينك, وهذا حقك وسلميه إليها.

فمضت الجارية فطرقت عليها الباب ودخلت, وأخبرتها خبر الرجل, وحدثتها بموته وأعلمتها الحال، فبكت وفتحت صندوقها وأخرجت منه رقعة, وقالت للجارية: عودي إلى سيدتك وسلمي عليها عني, وأعلميها أن الرجل طلقني وكتب لي براءة، وردي عليها هذا المال فإني ما أستحق في تركته شيئاً.

فرجعت الجارية فأخبرتها بهذا الحديث).

أيها الإخوة: لا يستقيم إيمان المؤمن, ولاتصفو له دنياه وآخرته حتى يؤدي الحقوق إلى أصحابها, وتبرأ ذمته من حقوق الله وحقوق العباد.

ثانياً– الحقوق المعنوية للرحم:

وهي العدل والوصل، وأردت بالعدل: العدل بين الأبناء, والعدل بين الزوجات –لمن كان معدداً–.

وأما الوصل فأردت به: بر الوالدين, ووصل الرحم, والإحسان إلى الزوج والزوجة.

وليست تبرأ الذمة من حقوق الرحم إلا بأداء هذه الحقوق.

ففي **العدل بين الأبناء** جاء البيان النبوي الشريف: «**اعدلوا بين أولادكم**», [أخرجه أبو داود].

وروى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «**تَصَدَّقَ عَليَّ أبي ببعض ماله، فقالت أُمِّي عَمْرَةُ بنتُ رواحة: لا أرضى حتى تُشْهِدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانطلق أبي إلى النبي لِيُشهده على صدقتي. فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أفعلتَ هذا بِوَلَدِكَ كُلِّهِم؟ قال: لا، قال: اتقوا الله، واعْدِلُوا في أولادكم، فرجع أبي، فرَدَّ تلك الصدقة**».

- فما عَدَلَ بين الأولاد من جعل معمله من بعده لولده الأكبر, ولم يعط سائر ولده كما أعطى الكبير.
- وما ساوت في العطية من وهبت أبناءها الذكور دوراً, ووهبت الإناث قشوراً.
- وما رعى براءة الذمة من فضل ابناً على ابن, من دون مبرر شرعي.., ولئن كان أحدنا فعل فليبادر ببراءة ذمته بالتسوية في العطية.

وفي **العدل بين الزوجات** في القسم والعطاء, جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ كانت له امرأتان فلم يَعْدِلْ بينهما؛ جاء يوم القيامة وشِقُّهُ ساقط**», [أخرجه الترمذي].

وتبرئة الذمة بالعَود إلى العدل, وطلب المسامحة عما مضى.

أما **الإحسان إلى الزوج**, فإن امرأة لا تنال رضا الله تعالى حتى تطيع زوجها بالمعروف، وتكرمه, وإن رجلاً لاتبرأ ذمته عند الله حتى يحسن إلى زوجته, ويكرمها.

وأما **صلة الرحم** فمبناها على إيصال الخير لهم ومعونتهم في البر، وإن «**الرَّحِمُ مُعلَّقة بالعرشِ، تقولُ: من وَصَلَني وَصَلَهُ اللهُ، ومن قطعني قَطَعَهُ الله**», [أخرجه البخاري ومسلم].

وأحب أن أختم بمسك الختام: **بر الآباء والأمهات**, وهو كلمة سر في الفلاح والنجاح، فكل خير تعرفه, وكل بر تتقنه, أوصله لأمك وأبيك وهذا هو البر، ومن علق بذمته حق لوالديه من البر بأن خالفهما في معروف, أو أغضبهما في غير حق, أو أبكاهما, فليرجع الآن فليضحكهما كما

أبكاهما، قبل أن تدخل ليلة القدر، فإنها ليلة مباركة عظيمة الخير، ليس للعاق فيها ولا للقاطع نصيب.

أيها الإخوة:

هذا حديثي لكم عن الذمم المترتبة على العبد في حق أرحامه, تحدثت الخطبة عن حقين للرحم: مادي ومعنوي، المادي هو النفقة, والمعنوي هو الوصل والعدل، وسبق حديث في خطب مضت عن حقوق العباد, وحقوق الله تعالى, وعن آليات تبرئة الذمة من كل منها.

- ترى هل نلقى الله تعالى بريئي الذمة غير مشوشين؟
- ترى هل يجمعنا الحوض نلتف حوله ونشرب من كف النبي صلى الله عليه وسلم؟
- ترى هل نلتقي في سوق الجنة؟

روى الإمام الترمذي عن سعيد بن المسيب –رحمه الله– قال: لقيتُ أبا هريرة، فقال لي: اسأل الله أن يجمعَ بيننا في سُوقِ الجنة، فقلت: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أنَّ أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذَنُ لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربَّهم ويبْرزُ لهم عرشُهُ، ويتبدَّى لهم في روضة من رياض الجنة، فيوضع لهم منابِر من لؤلؤ، ومنابرُ من ياقوت، ومنابرُ من زَبَرْجَد، ومنابرُ من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم –وما فيهم دني– على كُثْبانِ المسك الكافور، وما يرَوْن أنَّ أصحاب الكراسي أفضَلَ منهم مجلساً**».

قال أبو هريرة: قلتُ: يا رسولَ الله، هل نَرى ربَّنا؟ قال: «**نعم, هلْ تتمارَوّن في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟**», قلنا: لا، قال: «**كذلك لا تتمارون في رؤية ربِّكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضَره الله تبارك وتعالى محاضرة، حتى يقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم كذا وكذا، إذ قلت: كذا وكذا؟ فيُذَكّره ببعض غَدَراتِهِ في الدنيا، فيقول: يا ربِّ، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى, بسعَةَ مغفرتي بَلَغْتَ منزلتَك هذه، فبينما هم على ذلك غشِيتْهُم سحابَة من فوقهم، فأمطرَت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط، ويقول ربُّنا تبارك وتعالى: قوموا إلى ما أعددتُ لكم من الكرامة، فخذوا ما اشتهيتم، فنأتي سُوقاً قد حفّتْ به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطُرْ على القلوب، فيحمل لنا ما اشتهينا بغير بيع ولا شراء، وفي ذلك السوق يلْقى أهلُ الجنةِ بعضُهم بعضاً، فيقبل الرجل من منزلته المرتفعة فيلقى من هو دونه – وما فيهم دَني –**

فيَرُوعَهُ ما عليه من اللباس، فما ينقضي آخرُ سلامه عليه حتى يصيرَ عليه ما هو أحسنُ منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزَن فيها، ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا، فيَقُلْنَ : مَرْحباً وأهلاً، لقد جئت وإنَّ لك من الجمال أفْضَلَ مما فارقتَنَا عليه، فنقول : إنا زرْنا اليوم ربَّنا الجبار، ويحقُّ لنا أن ننقَلِبَ بمثل ما انقلبنا».

نسأل الله تعالى أن يعيننا على براءة الذمم, وأن يجعلنا مستعدين للقائه, وأن يجمعنا على الحوض وفي سوق الجنة.

والحمد لله رب العالمين